

سورة الصغيرة

٧٣

# التزامن

بين المحروب الصليبية  
والف ليلة وليلة

عبد الغني الملاح

# الموسوعة الصغيرة

سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول  
مختلف العلوم والفنون والآداب  
تصدرها دار المجاهد للنشر

رئيس التحرير: موسى كريدي

الكتاب القادم :

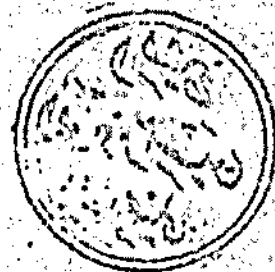
# الدماغ البشري

د. طارق إبراهيم حمدي

دار الحرية للطباعة - بغداد

السعر ٥٠ فلسا





١٩٥٤ م - ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م - ١٩٥٤ م

١٩٥٤ م

١٩٥٤ م

## التزامن

استعملت كلمة التزام ( التزام ) (١) من  
المتأخرين لامتثالها للن من مرة في هذا البيت،  
وكان هناك علماء النفس قد أرادوا بها تطابق  
التزامن بين الحروب الصليبية  
والف ليلة ليلة  
الذو القعدة الشريف . معقول الزمن . ولكن وبين  
هنا تحول من مسؤوليات أدبية أو تعليمية أو  
إدارية . حتى أو الصيغة الزمان . مشابهة  
الجميع الحدث الإنساني . ولكننا نعتبره دراسة طامعا  
فيستند على أقوالها . إذا ان تكريات الأحداث لا  
تحدث عند ذلك ولكن الإنسان يترك إمكانية أحياء  
سجلات الأجيال ( الثانية ) . ومثل هذا الأحياء هو  
المتأخرين . كمنه الكلي . المكتسبات الموروثة . غير ان  
المتأخرين العائدة . تمتد من هذه العائلة بكثرة  
المتأخرين ( التزام ) . وأحيانا نقدر تلك الملاحظات

## التزامن

استعيرت هذه الكلمة ( التزامن ) (١) من  
النفسانيين لاستعمالها اكثر من مرة في هذا البحث،  
وان كان علماء النفس قد ارادوا بها تطابق  
الاحداث التي تقع في وقت واحد وتزامنها بالنسبة  
لوقوعها فاني اريد بها العلاقات الفكرية المترابطة بين  
الموروث التاريخي : معلوم الزمان والمكان وبين ما  
دار حوله من موروثات ادبية او تحليلية او  
اسطورية حتى لو انتجتها ازمان متباعدة عن  
تاريخ الحدث الاساس ولكنها تعتبر متزامنة طالما  
تستمد منه افكارها . اذ ان ذكريات الاحداث لا  
تورث بحد ذاتها ولكن الانسان يرث امكانية احياء  
خبرات الاجيال الماضية (٢) . ومثل هذا الاحياء هو  
الاساس للبناء الكلي للمكتسبات الموروثة . غير ان  
الملاحظات العابرة تعبر عن هذه الحالة بكلمة  
( توارد خواطر ) واحيانا تقسو تلك الملاحظات

فتعبر عن محاولات احياء الموروثات بسرقات الخلف  
عن السلف . ولكن المنطق التاريخي يرى في الحدث  
رابا اخر ، فيصفه بالمجزا او المركب او المشوه  
او المحرف او المدسوس ، ان كان ذلك في الرواية  
او التسجيل او الحكاية او الخرافة ، وحيانا  
يراد براقا في الطريقة او النكتة . وهذا الاتجاه  
لا يخرج عن حاجات الانسان الى ( الانتماء والتعالي  
والارتباط بالجلد التاريخي والهوية والاطار  
التوجيهي ) (٢) وهذه الحاجات الضرورية تجعله  
يقرر بحذر ان كان التاريخ علما ام لا (٣) . لانه في  
احسن الحالات يكون اجزاء مشتتة من الحاجات  
الكلية لمعرفة الحدث المعين . والشئ الذي يمكننا  
ان نستند اليه لاعتبار التاريخ علما قائما بذاته  
هو تحديد الزمن الذي وقع فيه الحدث المطلوب  
تاريخه لان الحدث الواحد لا يمكن ان يقع مرتين  
او يحدث في محلين مختلفين ، فتحديد الزمان  
والمكان هو العلم وحده ، واما تأثير الحدث ، واما  
اهمية الحدث ، واما اصلته واما اسبابه ونتائجه  
فتلك امور نسبية يجب ان نتردد كثيرا في قبولها مجردا

عن المحاكمة العقلية . لانها تحمل في طياتها الرغبة  
والمعرفة ممزوجتين بنسب مختلفة ، مما يجعل  
الباحث اما متحيزا واما مجتهدا ، وكلاهما يدور  
حول الحدث بوجهة نظر تختلف عن (الآخرى ،  
بينما العلم الحقيقي لا يقر غير التطابق الكلي فسي  
تفسير الموضوع العلمي .

وقد انتبه ابن خلدون الى ذلك فقرر « هنالك  
نوعان من الحوادث تستحق الذكر ، اولهما الحوادث  
الجغرافية والاقتصادية ، وثانيهما الحوادث  
النفسية (٤) . وذكر الجغرافية والاقتصاد والحوادث  
النفسية في تفسير اقوال ابن خلدون يعزز القول  
بان الرغبة والمعرفة لهما تأثير متناقض في تفسير  
التاريخ وهما متمازجان بنسب مختلفة عند كل  
انسان على حدة .

ان كثيرا من الناس يعيشون حيارى في تفسير  
حدث معين ، لانهم لم يجدوا التزامن المناسب  
لتبديد حيرتهم ، وسرعان ما تتغلب الاخيلة على  
موضوعية الحدث فتكون هي المتنفسات الحقيقية  
لتبديد الحيرة . وهذا ما سنلمسه في الحروب

الصليبية كحدث حقيقي استمر مدة فجزره قرنين من الزمان ما بين ( ١٠٩٧ - ١٢٩١ ) ميلادية . وكيف تربت بعض تفصيلاته الى الحكايات والجغرافية والاقتصاد والانفعالات النفسية بأشكال شتى . والذي يقرأ كتاب الف ليلة وليلة يجد ثلاث حكايات - في الاقل - استوعبت ١٤٨ ليلة تقريبا (٦) تنطرق الى هذا الحدث تارة بالتصريح وطورا بالتلميح ، وهذه الحكايات هي :

- ١ - ( حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية )
- ٢ - ( حكاية علي نور الدين ومريم الزنارية )
- ٣ - ( حكاية الملك عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان )

وليس بالصحيح ان نعامل كل حكاية معاملة خاصة ، مع قناعتنا ان كلا منها قد انشئت في زمان مغاير لزمان نشوء الحكاية الاخرى . لان مصدر الحكايات الثلاث حدث واحد هو - الحروب الصليبية - مما يحتم علينا دراسة البيانات نفسها المؤدية الى كل حكاية من ابعاد مختلفة ، دراسة

مستمرة قابلة للتعديل والمحاكمة العقلية . وبمثل هذه الدراسة نكتشف العلاقات بين الموروث التاريخي وبين التفسيرات المتضاربة ، وحيانا المتناقضة لحياته في ذاكرة الناس . وفي كل الاحوال لا تخرج هذه التفسيرات عن كونها ، اما وجهة نظري الحدث الموروث واما حديث خرافة يدور حوله ، انتجته مخيلة الانسان المتأثر به او ببعض اجزائه مصاغة بشكل حكاية اسطورية . وهكذا يتوضح التزامن بين الحدث الواقع فعلا وبين الاخيلة المستمدة من ذلك الواقع . ولا تحتاج هذه الاخيلة الى التفرد والاصالة لكي تؤدي مفعولها بقدر ما تحتاج الى استمداد الغير للاصفاء والافتناع بانها جزء من السمات الاجتماعية العامة ، حتى لو كانت تلك السمات تتصف بالمعيات الباهتة التي تعجز عن التقرير النهائي في الادراك العقلي ، متأثرة بالمفهوم العام للبيئة المدهوشة من تفاعل الحدث مع محيطه الغامض سلوكا . فلا تجد تفسيراً لذلك التفاعل غير الاصفاء اعتبارا الى كل ما يتعلق بذلك الحدث . ومتى تضافرت القدرات

الانسانية على تفسير الاشياء ومسبباتها او تضافرت  
لادراك تغير العادات ودوافع تكوين عادات جديدة  
تكون ركيزة ضرورية للتعليم حتى لو كان هذا التعلم  
في مراحل الحرجة خاليا من كل متعة (٧) وكثيرا ما  
يتدخل الاشراق الصوفي في تطوير الحدث الى  
اسطورة او خرافة ، لان هذا النوع من التطوير  
يسبغ حالة قدسية على الحدث نفسه او يسبغ  
عليه اهمية خاصة تجعله في صف الكرامات ! كما  
سنلاحظ ذلك في ايمان الملك عمر النعمان بكرامات  
الجاموسة عجز الروم ام الملك الصليبي .  
ويجب الا نغيب عن معلوماتنا حكمة الاشراق  
الصوفي التي تبناها الغزالي في كتابه ( المنقذ من  
الضلال ) فتحدث عن الحدس في المعرفة لا بالدليل  
والبرهان ( وهذه المعرفة سماها الصوفيون :  
التجلي . واطلق عليها متصوفة المسيحية في الغرب :  
الدوق ) (٨) وليس بمقدورنا ان نوفق بين الحدس  
والتجلي او الدوق وبين الدليل والبرهان الا عن  
سبيل السلوك الانساني المبني على قواعد العقل  
الباطن والتراكمات المكبوتة في اعماق نفسه ، التي

كثيرا ما تتفجر عن عبقریات تعامل الحدث بما  
يقربه الى المفهوم العام عند كل المستويات العقلية  
او الاجتماعية متمشيا مع الظروف المتغيرة على  
الدوام في مسار الحياة وتطورها . وان كان بعض  
الفلاسفة قد ظن ( ان الحياة فيها عنصر لا يمكن  
حسابه وفيها تلقائية لا تتفق مع قوالب العقل  
البشري ) (٩) فان هذا العنصر هو الذي يسبغ حيوية  
على الترابط بين الحدث وبين الحكاية التي تدور  
حول الحدث ، ويمنحه لذة . فتبقى لعبة الحواس  
ومتعتها كخضم لدود للعقل تشغل بال المفكرين  
قرونا طويلة فلا تجد حلا اجتماعيا لها مهما ازدادت  
المعرفة بالسلوك الانساني . اذ ان كثيرا من  
الحضارات التي كانت معقولة اصبحت غير معقولة  
وكثيرا من الافكار التي كانت مقبولة اصبحت غير  
مقبولة . اما متعة الحواس فقد بقيت هي الأساس  
في الوجود الانساني . وهذا ما يجعلنا نتساءل : اذا  
اصبحت متعة الحواس غير معقولة يوما ما هل  
سيبقى الانسان في قمة الظاهرة الحياتية ؟ ليس  
موضوعي الاجابة عن هذا التساؤل بعجلة ، طالما

البحث يدور في العلائق الموجودة بين بعض حكايات الليالي وبين حدث الحروب الصليبية ؛ تلك العلائق التي تكونت من معاناة المجتمعات الاسلامية ومكبوتاتها خلال قرنين من الزمان وهي تتصادم مع مجتمعات صليبية كانت متاخرة عنها فكريا مما جعل هذه المعاناة تولد موروثا بشكل حكاية او خرافة ذات صلة وثيقة بما حدث فعلا . فكانت محورا لاهتمامات العامة ، وخصوصا اولئك الذين عجز السلطان عن اقتناعهم بصحة ما حدث وعجز عن اعطائهم المبرر المعقول بصحة ما انتهى اليه ما حدث . وهذا المعجز ناتج عن الهوة الحقيقة بين دوافع السلطان في التعامل مع الحدث وبين معاناة الناس الحدث نفسه . وهي اسباب يتعذر عليها تقريب المعرفة من المنفعة فتسبب الاضطراب للسلوك الانساني المركب المتمثل بتصادم المنطق في تفسير الحدث مع الرغبة في تفيده ، المستندة الى الانفعالات التي تعجز القدرات العقلية عن ايقاف جموحها ، فتتولد منها التناقضات الحتمية بين الدوافع والارادة .

## الغزو الصليبي

عندما يضع المؤرخون سنة ١٠٩٧ م بداية للحروب الصليبية يريدون بذلك بداية المارك العسكرية دون التطرق الى مقدمات هذا التاريخ والعوامل الحقيقية للغزو ، ويريدون بهذا التأريخ البداية دون التطرق ايضا الى تمزق الدولة العربية الى دويلات وامارات حتى اضحت معظم مدن الدولة العربية تحت سيطرة سلاطين من السلاجقة او المماليك . ومقابل هذا التمزق العربي كانت القوى في اوزبا تتجمع من عناصر المتعبدین والناقمين والطامحين لغزو البلاد الاسلامية بحجة تحرير القدس . وقبل بدء الحملة الاولى بسنتين كان البابا ( اوربانوس الثاني ) قد القى خطبة في مدينة ( مارمونت ) الفرنسية ، تلك المدينة التي كان قد اجتازها عبدالرحمن الفافقي - يوما ما - حتى مدينة ( بواتيه ) وراح يحث المتعبدین من امثال

( بطرس الناسك ) للانخراط في الجيش الزاحف  
 ( لانقاذ كنيسة القيامة من المسلمين الهراطقة ! ) .  
 ولكنه لم يذكر في خطبته ابدا انه يريد منهم ان  
 يستولوا على مناطق جديدة تربط اوربا بالشرق  
 وتمزز تجارتها في موانئ جنوى والبندقية وبيزا  
 ونصلها بالموانئ العربية عكا وبيروت وجبيل وصور  
 والاسكندرية . فهذا الغرض الخفي الذي كان يملأ  
 الرؤوس الكبيرة حققته حملة الصليبيين الذين  
 ساروا بحماس شديد نحو القدس وهم مزيج عجيب  
 من ( ارباب الخيال والمبيد والنفوس المضطربة  
 وعشاق المغامرات والمجرمين والخطاة الذين نشدوا  
 الغفران بالحج الى الارض المقدسة ) (١٠) ومن ورائهم  
 يقف التجار ويقف البابا نفسه هم لطماعهم ، وهو  
 لتعزيز سلطته الكنسية .

وفي القسطنطينية تجمع ما يقارب المائة  
 والخمسين الفا من هؤلاء الغزاة واخترقوا اسيا  
 الصغرى ( تركيا حاليا ) ثم انقسموا عدة اقسام ،  
 فاتجه صليبيو الدين الى مدينة الرها واحتلوها ،  
 واصبح ( بلدوين ) ملكا عليها واتجه النورمنديون

الى انطاكيا وانتصروا على اميرها السلجوقي ( ياغي  
 سيان ) ممثل ( ملكشاه ) حاكم بغداد وملكوا عليها  
 قائدهم ( بوهمند النورمندي ) بينما زحف الكونت  
 ريموند ( الفرنسي ) بجيوشه نحو الجنوب فاجتاح  
 ( معرة النعمان ) وسهل نهر العاص ، وخلال فترة  
 خاطفة تمكن ( غودفري ) من احتلال القدس وفتك  
 باهلها فتكا دمويا قدره ابن الاثير في كتابه الكامل في  
 التاريخ بسبعين الف قتيل .

وتعاقبت المعارك في مد وجزر وتعاقبت الحملات  
 حتى انتهت تلك الحروب بانتصار المسلمين سنة  
 ١٢٩١ م .

وهذه الفترة الزمنية بمختلف حملاتها تدور حولها  
 حكاية ( عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان ) ،  
 وتشير بشكل ما الى بعض المعارك ، اذ قد صورت  
 الحكاية ابطالها العرب آباء وابناء واحفادا للتعبير  
 عن المدى الزمني الطويل . وابطالها الصليبي ملك  
 القسطنطينية ( فريدون ) الذي قد يكون هو ملك  
 المانيا فريدريك الذي زحف برا من القسطنطينية خلال  
 الحملة الصليبية الثالثة ، وملك قيسرية المستعمرة



الصليبية التي احتلها الفرنج سنة ١١٠١ م بمساعدة اسطول جنوى ، وتسميه الحكاية الملك حردوب . وتقفز الحكاية الى الجيوش التي نزلت من بحر الروم ( الابيض المتوسط ) قادمة من فرنسا والبندقية وجنوى والنمسا ، وهذه الاسماء التي وردت في حكايات الليالي تذكرنا بالحملة الصليبية الثالثة التي تكونت بعد تحرير القدس على يد صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٧ م مما اثار أوروبا فدفعت بحملة جديدة ساهم فيها فريدريك ملك المانيا وفيليب ملك فرنسا وريكاردوس ( قلب الاسد ) ملك انكلترا فحاصرت تلك الحملة ( عكا ) وجرت معارك كبيرة ( فاستمان صلاح الدين الايوبي بالسباحين والحمام الزاجل لثامن الصلات بينه وبين المدينة المحاصرة ) (١١) .

واما (الحكايات) في الليالي فقد اسبغ من خياله ما تحتاج اليه عقول العامة - وهم اصحاب المصلحة في الحكاية - للاستجابات العاطفية ، فجعل للمرأة دورا كبيرا في الاحداث مثل ( صفية ) بنت ملك القسطنطينية ( فريدون ) و ( ابريزة ) بنت ملك

قيسارية ( حردوب ) وشواهي ذات الدواهي ام الملك حردوب ، ومثل هذا الاتجاه في اخيلة الليالي يتفق مع اقتراح ريكاردوس قلب الاسد على صلاح الدين الايوبي - حسما للنزاع - ان يزوج اخيه الاميرة الصليبية على الملك العادل اخ صلاح الدين وتقديم عكا والقدس هدية للمروسين ، كما يقضي الاعتراف بغروسية ( ضوء المكان ) بطل الحكاية في الليالي مع منح رتبة الغروسية الاوربية للملك الكامل ابن الملك العادل تقديرا لشجاعته ، وبهذا تكون الحكاية قد استفادت من الموروث التاريخي بما يتناسب مع امال الناس واحلامهم او بما يتناسب مع اراء الذين بلورت الحكاية انفعالاتهم تجاه الاحداث كما هم تصوروها او ارادوها ان تكون استنادا الى ما لديهم من المعرفة . وليس المهم ان يملك (الحكايات) معرفة اكبر من معرفة العامة ، طالما ان تطلعات العامة لا تشدها غير الامور الباهرة حتى لو كانت على درجة قصوى من الاسطورة او الخرافة . فنلاحظ ان مؤلف حكاية ( عمر النعمان وولديه ) يدرك معرفته ابعاد وقائع الحروب الصليبية

وظروفها ويتخطاها بالإشارة إلى التناقضات  
الإسلامية التي كانت بين امراء المسلمين (السلاجقة)  
انفسهم . فذكر حكاية ( سليمان شاه ) وجمال  
اصفهان ضمن الحكاية الاساس ، وهذا الاسم  
( سليمان شاه ) اسم حقيقي لأمير سلجوقي معروف  
له نشاطات سياسية معينة سبقت تحرير القدس من  
قبل صلاح الدين الأيوبي باثنتين وثلاثين سنة ،  
واخبرنا عنه ابن الأثير في حوادث سنة ( ٥٥٥ ) للهجرة  
١١٦٠ م فقال ( سار سليمان شاه من الموصل إلى  
همدان ليتولى السلطنة بعد أن كان سجيناً فيها .  
فبعد أن توفي محمد بن السلطان محمود أرسل رجال  
سلطنته إلى ( أتابك قطب الدين ) صاحب الموصل  
يطلبون منه إرسال سليمان شاه ليولود السلطة بعد  
إبائه . ولا يكتفي (الحكاية) بالنظر إلى مثل هذه  
الحوادث بل يطعم حكايته بأمور جانبية أخرى  
مستفيدة من فترات الهدنة الطويلة بين المسلمين  
والصليبيين خلال قرنين من الزمان فيذكر انشغال  
أحفاد عمر النعمان بالصيد واللهو فيعطي للزمان  
قوة بين الموروث التاريخي والحكاية وخصوصاً عندما

تقرأ أخبار الصيد في مذكرات ( أسامة بن منقذ )  
كما يطعم حكايته بأحداث اجتماعية عامة بعضها  
ذات اتجاه جنسي مثل حكاية ( عزيز وعزيرة )  
وبعضها ذات اتجاه اقتصادي مثل التجارة بالكتان  
في عكا وبعضها ذات اتجاه ديني مثل تعلم شواهي  
ذات الدواهي العلوم الإسلامية ومذاهبها . وهذه  
الاتجاهات مجتمعة تمثل الإطار الكامل للتفاعل  
الحضاري بين الشرق والغرب في ذلك العصر . غير  
أن هذا التفاعل سبب سيادة الأهواء والانفعالات على  
العقل عند كل من الطرفين . فمثلما نشأت الحكاية  
عند العرب نشأت قصص الفرسان عند الأوروبيين  
وبواعث هذا النشوء هي الخوف والرجاء في آن  
واحداً ( يتذبذب الشعور الديني بين الخوف  
والرجاء وبين الرهبة والرغبة ) كما يقول سبينوزا  
فالحوادث الحسنة مثال طيب والحوادث السيئة  
تبث على التطير والتشاؤم ، فيؤثر تأثيراً مباشراً  
في الحكاية واتجاهها ويشد المستمع إليها لأنها  
تمثل خوفه أو جاءه في الحياة العامة أو في تعامله  
اليومي .

وبالرغم من ان التقدم البشري سار في طريق القضاء على السلوك الانفعالي ، نحو العقلانية ، بقيت للحكاية قيمة كبرى كموروث يتزامن مع موروث واقعي هو التاريخ . ولكن الخرافة كانت افضل الوسائل لتسيير العامة (١٢) والسيطرة على توجيهها كما فعل البابا ( اوربانوس الثاني ) في اعداد الحملة الصليبية الاولى . ومثل هذه العلائق بين الخرافة والواقع نلسه بشكل اكثر وضوحا في حكاية ( مريم الزنارية ) التي حاربت وحدها جيشا كاملا من جيوش قوما الفرنج وانتصرت عليهم انتصارا لحبيبتها ( المسلم ) علي علاء الدين . ولكي يعزز (الحكاوي) الشعور الديني عند سامعيه جعل الجارية الفرنجية تقول للصعيدي ان عثوره عليها بين الاسرى وتملكه لها بمشرة دنائير فقط دليل على ( دينه الصحيح ) ويمثل هذا توجيهها مقصودا او غير مقصود لاستنباط السبل المؤثرة لتعزيز المفهوم والعادة السائدين في المسائل الداخلة ضمن نطاق العقل مع عدم خضوعها له الا قليلا . فهي كثيرا ما تتكلم باسم العقل ولكنها تجانبه في السلوك .

## العلائق بين التاريخ والحكايات

بقليل من التأمل والدراية نجد الشخصية العربية او الشخصية الاسلامية متمثلة بالجوانب السلوكية في حكايات الليالي . وقد ايدت كتب التراث التي تحدثت عن بعض جوانب الحروب الصليبية وجود النقائص السلوكية بين المجتمعين الاوربي ( الصليبي ) والعربي . فبينما تشير حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية الى ان ( عادة نساء الافرنج ان يمشين في السوق بلا نقاب ) وتشير الى زوجة فارس صليبي جاءت مختارة لثنام في دار عربي حتى الصباح لقاء مبلغ من المال نجد اسامة بن منقذ (١٣) يحدثنا في كتابه ( الاعتبار ) كشاهد عيان على التفسخ الجنسي الذي لمسه عند الافرنج ، اذ ( ليس عندهم شيء من النخوة والفيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته فليقاه رجل اخر ياخذ المرأة

ويعتزل بها) (١٤) ومثل هذا التزام بين افكار المؤرخ وبين افكار (الحكواتي) يضع امامنا سبيلا اوسع في تفسير الانفعالات النفسية ضمن مجتمعات مختلفة السلوك ، ولكنها متفاعلة مع بعضها بشدة من جراء الاحتكاك الفكري بين مجتمعين مختلفي الهدف ، بحيث تصبح العلاقات الانسانية مثيرة للاهتمام بغض النظر عن قبولها او رفضها . لان مجرد التفكير فيها وتسجيلها يعتبر اهتماما خاصا بها حتى لو كان ذلك التسجيل من قبيل التمجيد . فعندما يحدثنا اسامة بن منقذ عن الامير انصليبي ( كليم دبور ) Guillaume de Bwres صاحب طيرية بقوله ( اتفق انه رافق الامير معين الدين من عكا الى طبريا وانا معه فحدثنا في الطريق قال : كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت فجننا الى ( قس كبير ) من قسوسنا قلنا (له) تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا . قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق انه اذا حظ يده عليه عوفي . فلما رآه قال اعطوني شمعا ، فاحضرنا قليلا من شمع . فليته وعمله مثل عقد الاصبع وعمل كل واحدة في

جانب انفه فمات الفارس . فقلنا له قد مات . قال : نعم كان يتعذب فسددت انفه حتى يموت ويستريح ) (١٥) . ولا شك ان مشار تمجيد اسامة بن منقذ من هذا الطب راجع الى ما كان قد توصل اليه الطب العربي في ذلك الوقت ، ومشار سخريه امير طبريا الصليبي راجع الى ما عرفه من تقدم الطب عند العرب وراح يقارنه بما في بلاده من جهل . فالطبيب العربي كان متمرسا قبل هذه الفترة الزمنية ، ويروى ان المقتدر الخليفة العباسي عهد الى الطبيب ( ثابت بن قرة ) سنة ( ٣١٩ هـ - ٩٢١ م ) امتحان ٨٠٠ طبيب كانوا موجودين في بغداد وحدها . بينما كان اطباء اوربا يخنقون المريض بالشمع لتخفيف آلامه الجسدية . هذا في الوقت الذي كان الرازي يضع اولى قواعد علم النفس الطبّي فيقول : ( ينبغي للطبيب ان يوهّم المريض دائما بالصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك لان مزاج الجسم تابع لاخلاق النفس ) . وكان انتقال الطب الى اوربا عن طريق الحروب الصليبية باعتراف كتابها ، اذ يقول دي بور ( ان اطباء العرب كانوا معلمين اوربا

في هذا الفن حتى القرن السابع عشر (١٦) . واما المجالات الاجتماعية فقد بقيت قلقة في نفس الصليبي ( الاوربي ) اذ لم يتوصل ادراكه لمعرفة الاشياء : ( ابتداء من نقاط معينة متفق عليها تعتمد في الاقتناع على التجربة او العقل اي أنها تعتمد على الوقائع التي يتحقق الناس بحواسهم من وجودها ) (١٧) . ومثل هذا الضعف في الادراك جعل زوجة الفارس الصليبي (في حكاية الصعيدي) تغضب من الصعيدي لانه لم يتصل بها جنسيا ولم تفهم معنى يقظة ضميره عندما تجلت عنده فكرة الحرام والحلال وهو يتلمس عظمة الخالق في النجوم والبحر والشجر في تلك الليلة التي جاءت عنده . في الوقت الذي كان معجبا بجمالها اشد الاعجاب . وتصف الحكاية ذلك بأسلوب رومنسي بديع على لسان بطل الحكاية اذ يقول ( فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشرب وشمع وحلوى وكانت داري مظلة على البحر وكان ذلك في زمن الصيف ففرشت على سطح الدار وجاءت الافرنجية فاكلنا وشربنا وجن الليل فقمنا تحت السماء والقمر يضيء علينا فصرنا

ننظر خيال النجوم في البحر فقلت في نفسي : اما تستحي من الله عز وجل وانت غريب وتحت السماء وعلى بحر وتمضي الله تعالى وتستوجب عذاب النار، اللهم اني اشهدك قد عفت عنها ) وهذا الاستشراق الصوفي جوزي عليه الصعيدي بعد ان حرر الملك المنصور (صلاح الدين الايوبي) (١٨) واسرا الصليبيين، اذ وجد الافرنجية نفسها بين الاسرى فتملكها لقاء عشرة دنائير له في ذمة السلطان فأسلمت واخبرته ان هذا التوافق دليل على صحة دينه اذ عف عنها بالحرام فوهبها الله له حلالا بعد النصر . وتذكر الحكاية ( ابن شداد ) القاضي الذي عقد الصعيدي قرانه بواسطته على الافرنجية ، وابن شداد رجل حقيقي (١٩) ووجود اسمه في الحكاية يؤيد التزام بين الحكاية في الليالي وبين الموروث التاريخي . ومن امثلة هذا التزام وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامه منها (٢٠) اذ ان ما جاء في حكاية ( مريم الزنارية ) ابنة ملك الافرنجية من وصول اسطول الى الاسكندرية لخطف مريم الزنارية واعادتها الى ابوها ، دليل اخر على التزام . وكانت



النتيجة ايضا تعلق ( الزنارية ) بعلي علاء الدين  
وتفضيله على الملك والابهة في بلاد الفرنج . وتقص  
الحكاية مشهدا طريفا عن مقابلة مريم الزنارية  
لجيوش ابيها فعندما طلبت مساعدة حبيبها ( علي  
علاء الدين ) اعتذر وقال ( شعرا ماجنا ) اخبرها فيه  
انه لا يحسن الطعن بالسيف ولكن يحسن الطعن  
بشيء اخر ! .

ولم تعتبر مريم الزنارية شعر حبيبها (المسلم)  
تخاذلا منه بل زادها تعلقا به فحاربت وحدها  
وانصرت متمسكة بقدرها الذي اكد لها عظمتها  
الشرق العربي المتمثل بحبيبها ( علي ) وهذه الصورة  
شبيهة بصورة الفرنجية التي رفضت الرجوع الى  
زوجها الفارس الصليبي وفضلت ان تبقى عند  
الصعيدي .

والى جانب هذه المشاهد الاجتماعية والانسانية  
تحدثنا الحكايتان عن الاوضاع الاقتصادية في تلك  
العهود . فصاحبنا الصعيدي كان يبيع الكتان في  
صعيد مصر فكسرت بضاعته فحملها الى ( عكا ) في  
زمن الهدنة بين الصليبيين و ( صلاح الدين الايوبي )

فباعها بارباح طائلة ، ولما انتهت فترة الهدنة انتقل  
الى دمشق يتاجر بالرقيق . وتحدثنا الحكاية عن  
طريق البيع المباشر والبيع بالاجل والبيع بالمقايضة .  
واما ( علي علاء الدين ) فعندما نفذت دنائره وافلس  
راحت جاريته ( مريم الزنارية ) تصنع له كل يوم  
مندبلا مطرزا فيبيعه بمبلغ كبير فحسنت احواله  
الاقتصادية .

وقد حدث تزواج فكسري بين الحضارة  
الاقتصادية العربية وبين الاوربية ، ويحدثنا اسامة  
ابن منقذ في مذكراته عن استعمال كلمة (برجوازي)  
وقد سجلها بشكل (برجاسي ) صفة للرجل  
التاجر (٢١) . مما يدل على ان الكلمة انتقلت من  
الفرنسية الى العربية منذ القرن الثاني عشر  
الميلادي .

وقد اثر هذا التزاوج تأثيرا مباشرا على اوربا  
اذ ( بلغت حركة الملاحة والتجارة العالمية في القرنين  
الثاني والثالث عشر من النشاط درجة لم تعرف  
منذ العهد الروماني ، وكانت البوصلة التي ( يظن )  
ان المسلمين اول من انتفع عمليا باستخدامها ساعدت

في تسهيل شؤون الملاحة (٢٣) . وكان الإيطاليون  
اسبق الاسم الاوربية في استخدام البوصلة . ونتيجة  
لهذا التزاوج تأسس نظام مالي بين اوروبا والعرب  
اساسه ( الصك ) وانتقلت هذه الكلمة الى الانكليزية  
بصيغة ( شيك ) وقد ضرب اللاتين دينارا بيزنطيا  
بكتابة عربية يعتبر من اقدم ما سكه اللاتين من  
المنقود الذهبية .

وللتشابك التجاري والسياسي الذي حدث  
بين الافرنج والصليبيين خلال تلك الحروب عينت  
جمهورية جنوى لأول مرة في مدينة ( عكا ) سنة  
١١٨٠ م قنصل (يراسون المحاكم المحلية ويصادقون  
على توقيعات العقود والوصايا والوثائق والصكوك) (٢٤)  
وكون مدينة ( عكا ) مركزا تجاريا تمنح التزامن  
اهمية جديدة لانها كانت المدينة التي اختارها هذا  
التاجر القادم من صعيد مصر لبيع بضائعه فالتقى  
بالفرنجية التي اصبحت زوجته بعد ذلك . فكان  
الربط بين الحكاية والحقيقة التاريخية بمثابة  
تعريفات جوهرية وملائمة للمستوى الفكري السائد  
عند العامة . فهو حصيلة تجربة حدثت فعلا

فاستطاعت بمفردها ( ان تعطي معرفة حقيقية  
لاعتمادها على الحس والخيال ، وتحرك النفوس  
وتحثها على الاخلاص والطاعة فهي اذن نافعة  
وضرورية ولكنها ليست فليفيه ) (٢٤) . بل تعطي  
التجربة نعيما وحيوية مقبولين حتى لو كانت الادلة  
او شبه الادلة واهية او مفقودة مما يضطرنا ان نزامن  
بين التاريخ والحكاية باعتبار ان الدليل الذي لا نعرفه  
لا يعني انه غير موجود .

## لمحات صوفية

جاء الصليبيون الى الشرق الاسلامي وهم يكادون يجهلون جهلا تاما مبادئ الفلسفة الاسلامية والعوامل المؤثرة فيها والحرية الفكرية المتمثلة بالمساجلات الدينية بين المذاهب الاسلامية على اختلافها وكانت تلك المذاهب على تعدد مناهجها قد تجسدت معالمها الفكرية خلال فترة وجيزة - نسبيا - من الزمن ، سنة ( ٢٧ هـ - ٦٥٨ م ) . ومن خلال هذه المذاهب ظهر المعتزلة والمتكلمون ( الفلاسفة ) .

ومثلما اختلفت هذه المذاهب في تفسير ( اللاهوت ) الاسلامي وتحدثوا عن التوحيد والعدل بتعريفات مختلفة تطرقوا ايضا الى الاوضاع الاقتصادية بشكل مسهب وتحدثوا عن الربا والانتكالية والزهد ، ولكنهم جميعا نبذوا فكرة

الرهينة ( فلم يكن الاسلام يفسح صدره للرهينة المسيحية والتكشف الهندي وكثيرا ما دعا الى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة ) ( ٢٥ ) وقد استند المسلمون في ذلك الى المصدر الاساسي للدين ، القرآن الكريم ، فكانوا دائما يذكرون الذين ينزعون الى الكسل والرهينة بمثل هذه الاية ( قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، قل هي للذين امنوا في الحياة الدنيا خائصة الى يوم القيامة ) . غير ان النفس الانسانية هي نفسها دائما ، وان لم تكن عقدها مكشوفة او معروفة كما هي الان بعد اكتشاف علم النفس ، هذه النفس حرفت بتأثير عقدها - كثيرا من الراضين للاقتصاد السائد ونظام بيت المال القائم على الجباية القسرية نحو التصوف حتى اصبح التصوف ظاهرة دينية معترفا بها فقال ابن خلدون في ذلك ( الصوفية من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ) واستفاد الاتجاه الصوفي كثيرا من الانجيل لتبرير سلوكه في ربط العقيدة الالهية بالمعنى الاقتصادي حتى نجد الفزالي يقتبس اكثر من آية انجيلية ذات معنى اقتصادي فيقول ( اذا

تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت  
بيمينك فالذي يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت  
فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير  
ربك ) ، وهذا النص هو نفسه في (انجيل لوقا) (٢٦)  
وما ان حل القرن العاشر الميلادي حتى كان للتصوف  
شان يذكر بعد اجتيازه الحركات الدينية التي اثارت  
ضروبا من التأمل والنقاش الفكري . فظهر في القرن  
الثالث عشر ( ١١٦٥ - ١٢٤٠ م ) ابن عربي الذي  
( غادر موطنه في الاندلس فرارا من القيود التي كانت  
انذاك مفروضة على التفكير الحر ) (٢٧) . وفي هذه  
الفترة الزمنية جاء الى الشرق العربي على رأس  
الحملة الصليبية السادسة لويس ملك فرنسا  
( ١٢٥٠ - ١٢٥٤ م ) الذي وصفه معاصروه بـ  
( لويس القديس ) فاعاد بناء قيسارية وعكا وصيدا ،  
وعرف بصاحب القلب الطاهر ، ولكن المسلمين كانوا  
قد استعادوا ثقتهم بانفسهم واصبحت فكرة  
محاربة الصليبيين حربا مقدسة وجهادا حقيقيا في  
سبيل الله والدين والوطن فاسترجعوا معظم  
المستعمرات الصليبية حتى سقطت انطاكية بأيديهم

سنة ١٢٦٨ م وكانت من اوائل المستعمرات اللاتينية  
حيث احتلها الصليبيون خلال الحملة انصليبية  
الاولى ، وهذه الملاحظات التاريخية العامة استفاد  
منها (الحكواتي) في اخراج حكايات الليالي بشكل يبرز  
السمات الصوفية فنجد ( شواهي ذات الدواهي )  
تتنكر بزي زاهد صوفي مسلم اسره الصليبيون  
( وان له خمسة عشر عاما صائما واتقده المولى من  
اسر الكفار الذي هو اشق من عذاب النار ) وانتصب  
في المحراب يصلي مما جعل ( الملك شركان ) يؤمن  
بعقبة اعتقاد هذا الزاهد ولم ينتبه انى انه امرأة  
عجوز متشككة اختارت الطريق الامن للتجسس على  
جيوش المسلمين وقتل ملكهم . وبعد نوات الاوان  
قال شاعر الليالي يصف حال هذا الصوفي بل هذه  
الجانوسة :

صلى وصام لامر كان يطلبه

لما قضى الامر لا صلى ولا صاما

بينما يثبت شاعر الليالي الحالة الايجابية عند  
الصوفي المسلم ويعتبرها اصيلة وصادقة فيروي على  
لسانه :

اما والله لو علم الانام  
لا خلقوا لما غفلوا وناموا  
فموت ثم بعث ثم حشر  
وتوبىخ واهوال عظام  
ونحن اذا نهينا او امرنا  
كاهل الكهف اكثرنا نيام

وعندما اعول على ما بين الحكاية من لمحات  
صوفية وبين الموروث الصوفي في القرن الثالث عشر  
الميلادي ( الحملة الصليبية السادسة ) لا اطلب من  
القارئ ان يعتقد بقوة التزام ولكن ليس من  
المقول ان يرفضه بتاتا لان التجربة التاريخية كانت  
مستمرة عبر القرون وهي دائما تعتمد على الواقع  
لذلك باستطاعة هذه التجربة ان تعطينا معرفة ، ان  
لم تكن متميزة فهي واضحة . لا سيما اذا كان  
الموضوع متعلقا مباشرة بتناقضات لاهوتية بين  
الاسلام والمسيحيين في ذلك العصر .

ولاثبات فعالية هذا التزام يجب ان نعتد  
على التحليل العقلي مع ملاحظة سلسلة طويلة من  
البيانات المتشابكة عبر عدة قرون في مسطح جغرافي

واسع يمتد من الشرق العربي حتى الغرب العربي في  
الاندلس ثم يعود هذا التشابك صليبيا عبر اوربا  
عن طريق القسطنطينية او موانئ البحر الابيض  
المتوسط . ومن هنا تأتي اهمية الحكايات اذ لا تعطي  
تعريفات لهذه الامور بل تكيف الافكار على مستوى  
فهم العامة . لذلك كانت مسألة الاستشراق الصوفي  
عند الصليبيين او كما تسمى (الدوق) التي تجسدت  
في سلوك (لويس) قائد الحملة الصليبية السادسة  
مزيج من الايمان والانشداد الى الخرافة . ومن هذا  
التصوير رأى (جورج برناردشو) في كتابه (المسيح  
ليس مسيحيا) ان (مسائل الدوق هي على اغلب  
الراي مسألة موضة) مارستها جماعات من العباد  
او قارئ البخت والعجائب وقد استهوت عقول  
القرون الوسيطة وحيانا كانت السبب في تغير تاريخ  
اوربا كالتفاف الفرنسيين حول (قداسة) جان  
دارك (١٤١٢ - ١٤٣١ م) وانقاذ بلدهم من الانكليز  
بعد حروب المائة سنة . ولكن (الدوق) لم يكن  
صادقا دائما مثلما لم يكن التاريخ الثير ذا هوية  
محددة او مكان معين ، ولكن مما لا شك فيه ان



الحروب الصليبية عملت على تحرير عقول كثير من المفكرين الاوربيين ، فظهر التسامح الديني بعد ان لموا بالتجربة اهمية التسامح الاسلامي في اعطاء النوع من التعامل فذكرت كيف اعدم ملك (الفرنجة) بينما كانت الممالك المسيحية ( تقرر اعدام وفود المسلمين واسراهم ، وقد ظلت هذه انشريعة حتى بعد القرون الوسطى ، وتطورت الليالي الى هذا النوع من التعامل فذكرت كيف اعدم ملك (الفرنجة) الاسرى الذين اسرهم جنوده في البحر وكان من بينهم (على علاء الدين) ، وكانت المصادفة وحدها التي (اخترعها) (الحكواتي) لاكمال حكايته، هي التي انقذته وارسلته الى الدير ليلتقي بحبيبته مريم الزنارية كما يقضي سياق الحكاية . وكنتيجة حتمية لمثل هذا التعامل ظهر في اواخر الحروب الصليبية ( سان توماس ) ( ١٢٢٦ - ١٢٧٤ م ) الذي يعتبر من اكبر فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية فاعتبر الحرب ( معصية دنيئة ) مستندا الى قول القديس بولص ( لا تصبوا جام انتقامكم يا اخوتي الاعزاء على الاعداء ودعوا الغضب يذهب عنكم ) ( ٢٨ ) . وهذا الاتجاه الجديد يختلف تماما عن خطبة ( البابا ) النارية التي

القاهها لاعداد الحملة الصليبية الاولى قبل قرن ونصف تقريبا من التزامن الذي وجدنا فيه مدرسة ابن عربي الصوفية ومدرسة ( القديس ) لويس ملك فرنسا الكنسية وافكار سان توماس فيلسوف الكنيسة الكاثوليكية .

غير ان التسامح الديني الذي بلغته مجتمعات تلك العصور كان متوقفا على مقدار العناء الذي عاناه المجتمع الاسلامي والمجتمع الصليبي في تماسك اجزائه . في تلك الحروب ( ٢٩ ) . ولكن الفرق بين المجتمعين يتعلق بكون التسامح الديني عند المسلمين اصيلا مستمدا من الوضع الذي اعطاه القرآن الكريم للذميين ( اهل الكتاب ) بينما كان عند الصليبيين مقتبسا من الاسلام ، لذلك احتاجت افكار ( سان توماس ) في التسامح الديني الى عدة قرون حتى تنتشر في اوروبا . واحراق القسيس ( برونو ) سنة ١٦٠٠ م في ايطاليا لانه رفض حضور القداس واصر على تدريس الفلسفة ، دليل على عدم اصالة التسامح الديني عند الغرب وعلى تاخر ادراك المعنى الجليل الذي طالب به سان توماس قبل هذا التاريخ بقرون ونصف تقريبا .

## المسألة الاجتماعية

ليس ما ساقوله - هنا - هو كل شيء عن المجتمع الاسلامي في تلك الفترة من التاريخ ، لان التعقيدات التي كانت تميزه لم تكن وليدة ظروف آنية فحسب بل هي مستمدة ايضا من موروثات اقدم وذات علاقة بالتطور العام ، وانها ذات تناقضات جمة كثيرا ما يحلم بها الانسان ، على كل المستويات ان يكون ( ساحرا او ثائرا او زاهدا ) ، يحلم ان يكون ساحرا لينقل معاناته الاقتصادية بفركة ( خاتم سليمان ) فيحضر على الفور المارد ليقول له لبيك انا عبد بين يديك او يكون ثائرا ( خارجيا ) ليوفق بين الايمان والفكر ومحاربة السلطان وقطع الطريق ، او يكون زاهدا ليعوض عن اليأس الاجتماعي بآمال مستقبلية كما فعل الحسين بن منصور الحلاج . فبعد ان حلم في طفولته ان يكون ساحرا استقر على التصوف

ومعرفة الله . ولكن كثيرا من الطامحين راوا ان طريق الفتوة والسطارة هو الاقرب لاثبات وجودهم على سطح الحياة مستفيدين من تأييد السلطان لنظام الفتوة الذي كان بالاساس نظاما يشبه نظام الفروسية في اوربا ، فكان ( يشترط على الفتى صدق الحديث واداء الامانة واداء الفرائض واجتناب المحارم ونصرة المظلوم وصلة الارحام والوفاء بالعهد والعفو عن الظالم واحتمال الاذى وبذل المعروف ) (٢٠) غير ان هذا النظام فشل فشلا ذريعا وانقلب المنتسبون اليه الى قطاع طرق ومثيري فتن . اما الخيرون منهم فاصبحوا تلاميذ للمتصوفة ، فشاهد القرن الثاني عشر الميلادي بوادر تنظيم واسع جدا في الحياة الدينية ، كنتيجة طبيعية للتفاعل العقلي بين بداية سقوط الحضارة الاسلامية بعد القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) وبين مهاجمة الدولة الاسلامية من قبل التتار من الشرق والصليبيين من الغرب . ( فكان مشاهير المعلمين الصوفيين يحيطون انفسهم بجماعة من التلاميذ فيعيشون سويا ، وكان هذا التجمع بمثابة جمعيات

حرة تستوحى تعاليمها من اتصالها بالشخصي بأحد شيوخ الطرق الصوفية (٢١) . فاصبح للكرامة الصوفية معنى خاص يستغله المشعوذون ويصدقته المؤمنون او ( المنتمون ) للطرق الصوفية . وقد حدثنا اسامة بن منقذ في ( الاعتبار ) عن رجل اسمه ( عبدالله المشرف ) روى عن نفسه انه كان سجيناً ومقيداً بالحديد فرأى النبي محمداً في منامه يقول له اخرج يا عبدالله من السجن فقيودك مكسورة فلما استفاق من نومه رأى قيده الحديدي فعلا مكسوراً وباب السجن مفتوحاً والحراس قد اخذتهم غشاوة فلم يروه وهو يغادر السجن . بينما نجد الى جانب هذه الخرافة او ( الشعبة ) خبر فقيهي هما ( الفندلاوى ) و ( الحلولى ) (٢٢) وقد حاربنا ( كونراد الثالث ) ملك الالمان Conrad في دمشق قتالاً حتى قتل . وهكذا يمتزج الحلم بالواقع والشعبة بالتضحية . فتتكون الحكاية مستمدة قوتها من تلاطم الاحداث التي لا معنى ظاهراً لها فكان الانسان العالي يشمر في اعماق ذاته شموراً غامضاً قد يكون مبهماً امام الحقائق الكبرى كالدين

والفلسفة والحياة . وقد يكون له معنى كبير اذا سار ذلك الانسان عبر الطرقات وسوح الممارك ( فيضطلم بتلال من الجثث بلا رؤوس من الموحدين ومن الصليبيين تتراكم تحت الشمس فلا يقدر ان يدرك اين هو الثمن لهذه التضحيات . وخصوصاً عندما يستعرض اخبار فتن تنفجر في الموصل وسامراء وخراسان والاحواز وبغداد وطبرستان ومصر والمغرب . انها حروب بين المسلمين والمسلمين وحروب بين الروم والروم وحروب بين المسلمين والروم (٢٣) . وهذه المجتمعات ( العسكرية الكبيرة ) قائمة على وحدات اسفر في المدن والقرى والعائلة ، ( فلا تجد قطراً ولا بلداً ولا عشيرة ولا عائلة الا في نزاع وتحاسد وتباغض وغصب اموال وجلب ابداء ، دولة مترامية الاطراف تطفح بالحقد والجثث ) (٢٤) انها سقوط الحضارة فلم يتمكن الانسان العامي من ان يعطي تفسيراً لمعنى السلب الواقع على ابناء الشعب دون ابناء السلاطين والحكام . فاذا اجتاحت الجيوش الصليبية مدينة او قرية اسرقت اهلها وباعتهم رقيقاً واذا استرجعت الجيوش الاسلامية

تلك المدينة او القرية اصبح الباقون من اهلها خطبا لتلك الحروب. وقد انتقم (الحكواتي) في الليالي من هذه الابعاد فضيع الامير (ضوء المكان) ارضاء للامة ورماه (في الحكاية) على عنبر الوقود في الحمام ليعثر عليه الوقاد القدر فينقذه ويمن عليه مدى الحياة، وضيع اخته الاميرة (نزهة الزمان) وباعها رقيقا ارضاء للبنت العامة المعرضة للنهب والبيع في سوق الرقيق. وجعل العبد الاسود (الرقيق) يقتل الاميرة (ابريزية) الصليبية لا تكونها بنت ملك الافرنجة وانما - بعد اغتصابها - حقدا على النظام الاجتماعي الذي قسم الناس سادة وعبيدا وملوكا وعوام. وهكذا تناول الحكاية مسألة اجتماعية مهمة في نظر التقدم الحضاري والتطور التاريخي هي اقرب الى الفلسفة من تقرير الواقع العام. وتتناول الاختلافات النفسية عند الطبقات الاجتماعية المعترف بها في ذلك العصر، تلك انطبقات المتمثلة بالعبيد والبدو والجند والمتصوفة والتجار والوقادين والزبالين والسفلة والفتوة وقطاع الطرق والسلاطين والسحرة، وتنقسم هذه الطبقات على نفسها

اتقسامات اخرى تتجاذبها حرية الفكر احيانا والاضطهاد العقلي احيانا اخرى. فعلى مدى عدة قرون امتلأت السوح الاسلامية ومساجدها بالخوارج والمعتزلة والقرامطة والحشاشين والزنادقة والروافض والاسماعيلية والفلاسفة (المتكلمين) وغير ذلك من (الاصطلاحات الفكرية) التي كانت بمثابة ارباضات في محاولة اثبات الذات لحقيقة الذات، الفردية مرة والجماعية مرة اخرى، او هي بمثابة اصطلاحات للتعبير عن المحنة العقلية وما تخللها من تفاعل اثر تداخل الموروثات الاقدم ببعضها من اديان وفلسفات وقد امتزجت بالتطلعات السياسية والمصالح الانية. فبينما يرى المتصوفة ان مقاومة الحكم الفاسد يأتي عن طريق معرانة الله. يرى غيرهم: (لو ان رجلا تصوف اول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير احمق) (٢٥) ومثل هذه التناقضات فجرت المجتمع عن كتل مختلفة حسب الاجناس والمذاهب الدينية او الاهداف السياسية او المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية فظهرت من الطبقات الدنيا من اصحاب الحرف واهل البطالة

والمجرمين ، قوة حاقدة تعالىء هؤلاء او هؤلاء  
 فيقطعون الطرق باسمهم وينهبون الاسواق ويفتحون  
 الدكاكين ويشعلون الحريق ويكبسون الدور  
 ويكسرون السجون (٢٦) مما جعل البون شاسعا بين  
 الاهداف العليا وبين اصطرار الخبرات الداخلية  
 التي كان يجب ان تتم عن طريق مفكر غير منتم لكي  
 يتمكن من اعطاء نتائج واضحة ونهائية لمفهوم المجتمع  
 بعد تلاحم الموروثات وتفاعلها . فعندما راودت  
 الشكوك ابا حامد محمد الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م)  
 تحيز للفلسفة انقادا لشكوكه من صلاحية التيارات  
 الثقافية في عصره ونبذ المقاييس العقلية وراها غير  
 صالحة لمعرفة الحق . فركن الى ( النجلي ) لفهم  
 الحقائق ، ولم يكن بإمكانه ان يتوصل الى غير ذلك  
 والسلاجقة مهيمون والعرب مشتتون والصليبيون  
 يقودون الحملة بعد الحملة لهدم القيم الانسانية  
 باسم قيم اخرى يقولون عنها انها انسانية . وعندما  
 اراد ( الحكواتي ) في الف ليلة وليلة ان يعبر عن رفضه  
 لهذا الانزواء الذي لا يطعم ولا يسمن البس عجوز  
 الروم ( شواهي ) ثياب زهاد المسلمين لتنتقم من

المسلمين انفسهم وصور لنا امراء المسلمين خاضعين  
 للجنس فحشر في حكاية عمر النعمان التي تدور  
 حوادثها حول حرب المسلمين مع الروم ، حشر  
 حكاية ( عزيز وعزيرة ) وحكاية ( تاج الملوك والست  
 دنيا ) وحكاية قتال ( كان ما كان ) مع كهرداش وهي  
 حكايات تتحدث عن المشق قبل الحروب وعن  
 الجنس قبل الحكمة والقيادة . بل صورت لنا  
 ( الليالي ) صلاح الدين الايوبي نفسه (الملك المنصور)  
 انه بعد ان حرر عكا من الصليبيين اشترى بخزينة  
 الدولة جارية فحصل فيها عجز مقداره عشرة دنائير  
 فلم يقدر على تسديد قيمة الجارية فقايض تاجر  
 الرقيق بجارية من الاسرى لقاء الدنائير العشرة .  
 وهذه الصورة التي سجلتها الليالي عن صلاح الدين  
 تناقض الصورة التاريخية التي قالت انه كان في  
 شغل عن الجنس في تأسيس المدارس والمستشفيات  
 وبناء الجسور وطلب العلم . ولكن التزامن بين  
 الحكاية والاخيلة وبين الموروث التاريخي بمنح  
 الباحث المعاصر قسطا من الفلسفة الاجتماعية  
 وخصوصا عندما يقارن بين السم الذي قدمته



شواهي ملك المسلمين وهي في زي الزهاد المسلمين  
 وبين السم الذي قدمته جارية ( الوزير عون الدين  
 بن هبيرة) الى ملكشاه السلجوقي وقضت عليه (٢٧).  
 او الخنجر المسموم الذي حاول به الحشاشون  
 اصحاب كامل الصباح اغتيال صلاح الدين الايوبي.  
 وتنبعث النظرة الفلسفية ليس من التركيب  
 الاجتماعي في العصر فحسب بل من كون ذلك  
 التركيب كان يشمر اهله كلا على حده ، ان له الحق  
 الطبيعي على كل شيء ، فيجب الجميع كل شيء  
 ويكرهون كل شيء ، فهم في متاهة عقلية شاسعة وهم  
 قادرون على الدفاع عن الدولة دفاعا مؤكدا . ولكنهم  
 لم يفعلوا الا بقدر انتمائهم الاقتصادي او الفكري  
 فبقدر ما هم انصار للامير عندما يمدهم باسباب  
 الحياة هم اعداؤه عندما تنحصر عنهم او عن اميرهم  
 تلك الاسباب . فالعلائق الاجتماعية أصبحت علائق  
 مصلحة آنية بعد ان كانت في مطلع تأسيس الدولة  
 الاسلامية علائق فكرة حتى الموت . وبالرغم من غموض  
 مثل هذا التعريف فانه يكفي للدلالة على المصيبة  
 العقلية التي حدثت في رفض تفحص الافكار المتباينة

التي حدثت عبر قرون ، والتي قلنا عنها قبل قليل  
 انها كانت تمثل معاناة الذات لانبات وجود الذات  
 فردية او جماعية لان انسان ذلك العصر بالرغم من  
 الثروة الفكرية التي كانت بين يديه عجز عجزا تاما  
 عن اعطاء تفسيرات لوجود التناقض في مجتمعه .  
 فجعل التكتلات الضيقة تنشد انشدادا تاما الى  
 ادراكاتها الخاصة وتطلعاتها الخاصة مما سبب  
 ضмор الفكر العربي عدة قرون ، والتي عرفت  
 بعد ذلك بالمصور المظلمة .

## الصورة عند القبيلين

اجتازت اوربا ( البربرية ) القرن العاشر  
الميلادي ، واتصالاتها بالشرق الاسلامي تزداد عن  
طريق تجار البندقية وجنوى وجنر الابيض  
التوسط وبلاد الاندلس ، فيزداد من جراء ذلك  
تكتلها الذي رافق انهيار الدولة الاسلامية وتمزقت  
اوصالها الى دويلات ينافس بعضها بعضا وتعمل  
- لا اراديا - على تحطيم ذاتها وتحطيم مكتسباتها  
الحضارية وابداعاتها الفكرية ، وكانت معاول  
التحطيم قد بدأت قبل ذلك التاريخ بدوانع المنازعات  
المذهبية واحيانا القومية ، والخليفة العباسي في  
بغداد محدود السلطة ، مشلول الارادة بل لا سلطة  
لديه ولا ارادة ، تسير المنازعات الفردية ، والمطامع  
الدخيلة من بويهيّة وغزنوية و سلجوقية . وبوادر  
هذه الحال ترجع الى مطلع العهد العباسي ، عندما

طرحت الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية  
مسائلها ، وتغلقت الديانات القديمة في المفاهيم  
الجديدة ، وقد اعتبر ( الجاحظ ) هذا التغفل  
ابتلاء ابتليت به الامة الاسلامية فقال ( انهم يتبعون  
المتناقض من احاديثنا والضعيف بالاستناد من  
روايتنا من اي القرآن ثم يخلون بضعفائنا ويسألون  
عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل المحدثين  
(الزنادقة) ، ولولاهم ما صار الى اغنيائنا وظرفائنا  
ومجاننا واحداثنا شيء من كتب الماثوية والديصانية  
والمرقونية ) (٣٨) .

صحيح نحن نختلف مع الجاحظ في كون  
دخول الفلسفات القديمة الى الاسلام سببا جوهريا  
للانحرافات التي ادت الى سقوط الحضارة ، ولكننا  
لا نقدر ان نصفع عن المقاصد الخبيثة التي ادخلها  
بعض اصحاب العقائد القديمة الى الاسلام لتحطيمه  
من داخله وتخريبه بمعاوله انتقاما لمجدهم الضائع  
وعقائدهم المهزومة امام التيار الاسلامي الذي جعل  
تلك العقائد في قائمة الكفر والالحاد .

وعندما حل القرن الحادي عشر الميلادي انتهت

اوربا وقد سادها سلام نبي والف بين الاقطاعات  
 ( فاتيح للاقطاعية ان تنتقل الى عهد من الازدهار  
 المادي انصرف فيه اصحاب القصور والاديرة الى  
 العناية باستثمار الارض وزيادة الثروة والخيرات  
 مجتدين جماهير الفلاحين لقطع الغابات وشق  
 الاراضي وتمبيد الطرق ) (٢٩) . غير ان النظرة الحاقدة  
 ضد الشرق الاسلامي بقيت كامنة في نفوس الاوربيين  
 خارج مفهوم الدين المسيحي نفسه . وقد اتجه  
 ( سبينوزا ) بعد ذلك بزمان الى الازدواجية بين  
 الدين المسيحي وبين سلوك المسيحيين الاوربيين حتى  
 مع انفسهم فقال : ( لقد دهشت مرارا من رؤية  
 اناس يفتخرون بايمانهم بالدين المسيحي اي يؤمنون  
 بالحب والسعادة والسلام والعفة والاخلاص لجميع  
 الناس ويتنازعون مع ذلك بخبث شديد ويظهرون  
 اشد انواع الحقد ) (٤٠) . اذن لا نستغرب من  
 الفضائح التي اقترفتها الحملة الصليبية الاولى ضد  
 الدولة البيزنطية وضد مسيحيي فلسطين اذ  
 استولت على اديرتهم وكنائسهم وبيوتهم وطردتهم

مما جعل ( بطريق القدس ) يهرب الى القاهرة ويحتمي  
 بالدولة الفاطمية ) .

وقد صور لنا احمد بن زيني المكسي في  
 ( الفتوحات الاسلامية ) صورا تشتمل منها الضمائر  
 عما فعله الصليبيون بمسيحيي الشرق ومسلميهم  
 على حد سواء باسم تحرير بيت المقدس ، فكانت  
 تلك الحروب في اوائل حملاتها تتميز بازمة الضمير  
 الاوربي اذ ان ( الفارس ) الصليبي مهما كانت  
 تعاليمه عالية وتقاليده جيدة وسلوكه معترفا به الا  
 انها كانت معطلة تماما او مهزومة تجاه المطامع  
 السياسية والاقتصادية . فكان جميع المتعاملين  
 القادمين عبر الدولة البيزنطية من اوربا ، كل منهم  
 يشير الى نفسه ويبحث عن الوضع الملائم لوجوده  
 الشخصي مما جعل الامراء والتبلاء يتنازعون فيما  
 بينهم ويؤسسون اكثر من دولة لاتينية في الرها  
 وانطاكية وجبيل والقدس .

ولم يكن الشرق العربي والاسلامي اقل ازمة  
 ضميرية في ذلك الحين حيث يظل يخسر قضيتيه  
 باستمرار تحت شعار اطاعة التعليم ، في الوقت

الذي كان اصحاب تلك التعاليم جميعهم زائفين  
ضالين وكذابين منافقين يعملون ضد المعرفة  
والدكاء . في سبيل اثبات كيانات رحيمة يحميها  
الاضطهاد الديني باسم الدين ويسندھا الانحراف  
الطائفي باسم الايمان . ولم تغب هذه الحقيقة عن  
فكر ( الحكواتي ) او مخيلته فاخضع المفكرين من  
معتزلة وغيرهم لمناقشة ( جارية ) (١١) من جواري  
حكايته في الليالي لكي تغضهم في علومهم وتشر  
بهم في جهلهم . ولم يات هذا التزامن اعتباطا من  
قبل (الحكواتي) . وانما اراد به كشف الزيف السلوكي  
عند الخامة بينما العامة تحرقها الحروب والفتن  
وقودا لهدف نظري غامض لم يتمكن السلطان من  
ترجمته الى واقع قومي او ديني او انساني تجاه  
طفيان الجيوش التتريّة من الشرق والصليبية من  
الغرب ، ذلك الطفيان الذي سحق التراث القومي  
والديني والانساني وافرغ الحضارة الاسلامية من  
مدلولها العلمي وابعادها الفكرية المتفاعلة مع كل  
الحضارات القديمة .

وكانت الصورة في هذا الموروث التاريخي

واحدة في جميع البلاد الاسلامية والصورة واحدة في  
جميع البلاد الاوربية . فهناك تراكمات هائلة من  
الفكر والتسامح الديني ، ولكنها بلا يد قوية تدفع  
عنها ، اذ ان السلاطين يكيد بعضهم لبعض باسم  
الفكر والتسامح والدين . وهناك تراكمات هائلة  
من الجهل والتعصب والفرس ولكن يد ( البابا )  
وتجار الموائء تمزرها وتدفعها بقوة لانقاذ قبر  
المسيح !

واما الصورة في الحكاية فقد جاءت واحدة  
فهي لا تخرج عن الدسائس والخيانات بين الوزراء  
والملوك وعن كيد الاخوة الامراء لبعضهم وفي الجانب  
الاجتماعي لا تخرج عن تقديس الجهل والخرافة  
وقتل الاسرى او تقديمهم خدما للاديرة . والمرأة عند  
القبيلين تضيع وتسترق او تؤسر وتسترق او تباع  
وتسترق . وبين الضياع والاسترقاق ينتقم العبيد  
او البدو من ساداتهم ابشع انتقام . ولم يكن العقل  
قانونا للحياة ولا الضمير حافزا للتقدم الانساني فتلك  
الاحداث وغيرها من الموروثات المتزامنة كانت بمثابة  
تعريف : ان الظاهرة الحياتية الانسانية هي اعلم

من البيئة الخاصة بكثير وليس بإمكانها السيطرة على الطبيعة المطلقة سيطرة فعالة لتغير النوع ، ولكنها بكل تأكيد تقدر على الاستفادة من الطبيعة بمدلولها العام وذلك بقدر ما تتعلق تلك الفائدة بالمصالح الحياتية وما يكتنفها من ازدواجيات ، وتكون التجربة دائما هي الرائد الاصيل لذلك (٤٢) وجاءت نتائج التجربة الصليبية متأخرة : جاءت بعد قرنين من بدايتها فادرك الغرب ان عليه الابهت كل شيء بل عليه ان ينهل من مناهل المعرفة عند العرب والمسلمين . وادرك العرب والمسلمون ان انقاذ انفسهم وتربيتهم وتراثهم لا يمكن ان يتم بالتفكك الاناني ، فظهر صلاح الدين الايوبي ليصنع معركة حطين ، وظهرت الحكاية لتمجد انقاذ عكا وتدين ملك الفرنجة ، وظهرت الاخيلة لتمجد الاميرات الصليبيات اللاتي انحزن الى الجيوش الاسلامية ، وتدين العبيد والبدو الذين تمردوا على الجيوش الاسلامية ، وهذا ما يجعلنا تؤكد ان التجارب قد اقلت ضوءا ما على الاوضاع السائدة. فميزت الحكاية بين البطل وبين الوفد بدقة اكبر

سما فعل الموروث بالبطل وبالوعد ، وسلكت الحكاية مسلكا مبسطا من غير تعقيد فجعلت القارئ يضطر الى اعتناق افكار حاسمة في فهم الصورة عند كل قبيل من القبيلين ، الاسلامي والصليبي .

## الوجه المشرق

لحد الان والصورة مبهمة مكتومة الاضاءة وهذا ليس معناه انعدام وجود وجه مشرق في الموروث التاريخي في تلك الفترة الزمنية . اذ ان جهود العرب كانت واسعة جدا في العلوم وكان القسط الذي قدمته الحضارة العربية والاسلامية عظيما ، ففي الوقت الذي كان العقل الاوربي خاضعا خضوعا وثنيا للاساطير والتوراة كان ابن حزم ( سنة ١٠٦٤ م ) يهاجم الخرافة بعنف « حتى انه استعمل بعض الالفاظ النابية » في ذلك ، وينقل لنا عمر فروخ في كتابه « عبقرية العرب » عن كتاب ( الملل والنحل ) لابن حزم قوله « زعم القوم ان الفلك والنجوم تعقل وانها ترى وتسمع ، هذه دعوى بلا برهان ، وصحة الحكم ان النجوم لا تعقل اسلا وان حركتها ابدا رتيبة واحدة لا تتبدل » . وفي الوقت الذي كان اهل المهد القديم يقولون ان

انهار النيل وجيحان ودجلة والفرات تخرج من الجنة وتسقى المعمورة فند ابن حزم الاندلسي هذه الخرافة وذكر ( ان لهذه الانهار منابع معروفة في ارضنا هذه على ما هو معروف في كتب الجغرافية ) (٢٢) .

وسارت العلوم عند العرب في هذا المسار العلمي الخاضع للتجربة والملاحظة والبرهان المنطقي والتحليل العقلي . واما الفلسفة فقد بلغ العرب والمسلمون فيها شوطا كبيرا ، فصححوا اخطاء الفلاسفة اليونان وابدوا رايهم في العدل والتوحيد وفي نظام الكون ، وقالوا ان لكل جسم طبيعي قوانين ثابتة تسيره ، وللاجسام ضبائع وافعالا مخصوصة بها وناقشوا ارسطو في نظرية ( الحد ) اذ ان الفلاسفة اليونان حدوا الجسم بانه مركب من ( الصورة والجوهر ) بينما ابو الهذيل ( المعتزلي ) قال ان ( الجسم ماله يمين وشمال وظهر وبطن واعلى واسفل ) ويقول غيره « الجسم هو الطويل العريض العميق » وتحدثوا عن كون « الانسان جزء من اجزاء الكون لكن طبيعته تختلف عن طبيعة الاجسام » . وقالوا في المعرفة انها نوعان « حسية وعقلية »

وتحدث اخوان الصفا في شتى العلوم اد قال عنهم ابو حيان التوحيدي « هناك ذكاء غالب وذهن وقاد ومتسع في قول النظم والنثر مع الكتابة البارة في الحساب والبلاغة وحفظ ايام الناس وتصرف في كل شيء » ودافع « المتكلمون » عن العقيدة وطرح الفارابي نظرية ( المعاني الكلية ) للمناقشة وهي تلخص بكون العقل الانساني هو الذي يستخرج الكل من الجزئيات في التجريد ، وقد نار حول هذه النظرية جدل كثير في اوربا حتى نهاية العصور الوسطى في اوربا .

ولم يكن الطب اقل شانا من علوم الكلام والفلسفة ، فيذكر لنا ابن القفطي (ت سنة ١٢٤٨م) في كتابه ( اخبار العلماء ) سيرة اربعمائة واربعة عشر طبيا وحكيما . ويقول المستشرق ( ماكس مايرهوف ) ان كتاب ( عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة (ت سنة ١٢٧٠م) لا يقل اهمية عن كتاب ابن القفطي وقد تصدى فيه لسيرة اكثر من ستمائة طبيب (١١) . وقد استمد ابن ابي اصيبعة من مراجع ( ذكرها ) وهي الان مفقودة بالاضافة الى

معرفته الجيدة في طب العيون فهو اشهر الكحالين . ويسمى ( مايرهوف ) القرن الحادي عشر الميلادي العصر الذهبي حيث « كان اطباء العالم الاسلامي وعلمائهم يمارسون مهنتهم على اسس مكيئة . » ومعرفة ( ابن البيطار ) بغوائد الاعشاب في العلاج تؤيد هذا الرأي وتجعل الطب في قمة العلوم القائمة على التجربة والملاحظة مما جعل ( ابن النفيس ) يكتشف الدورة الدموية الصغرى في وقت مبكر بالنسبة لتطور علم التشريح .

والى جانب هذه العلوم كانت الجغرافية والخطط والاسفار تضع الدنيا امام اعين الدارسين . فخرطة الادريسي غنية عن التعريف بينما ذكر لنا « القريري » ان احد السياح دخل مكتبة الفاطميين في القاهرة فرأى فيها ( مقطعا ) من الحرير الازرق غريب الصفة فيه صورة اقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومساكنها وجميع المواطن مبيئة للناظر (٥) . وقد حدثنا التاريخ عن عناية الدولة الفاطمية بالكتب وتخزينها وتبويبها اذ كان بمكتبة ( العزيز ) الفاطمي اربعون خزانة للكتب من

جملتها خزانة واحدة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من علوم الفلسفة والطب والالهيات . ومثيلات هذه المكتبة التي وصلتنا اخبارها كانت موجودة في معظم قصور الحكام والامراء ومباحة لكل من يود منها الفائدة ، مما يعطينا فكرة واضحة عن حرية البحث والاطلاع في شتى العلوم حيث يسمع لكل الطالبين والعارفين والباحثين ارتيادها . فعكوا ( ان علي بن يحيى المنجم كان ممن جالس الخلفاء وكانت له خزانة كتب عظيمة في ( ضيعته ) وسماها خزانة الحكمة وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون ، والكتب مبذولة لهم والصيانة مشتملة عليهم والتفتة في ذلك من مال علي بن يحيى (٤٦) . لذلك كانت دهشة المستشرق الفرنسي ( البارون كازا دي نو ) في محلها عندما لفتت تفكيره هذه الظاهرة العلمية قياسا الى التمسك الديني في اوربا ثم قال ( اننا نجد عند العرب تلك العبقرية العظيمة وموهبة الابتكار العلمي والنشاط الفكري المبدع ) وقال ايضا ( علوم العرب انما هي تكملة لعلوم الاغريق التي حفظوها وصانوها من الضياع والتلف وتقدموا

بها وانموها و اضافوا اليها واخرجوها بشكلها النهائي ) .

وما يقال عن الفلسفة والطب والجغرافية وصيانة الكتب في الخزائن العامة والخاصة يقال عن الحساب والجبر والرياضيات والفلك والصيدلة والحيوان . وكتب التراث ودراسات المستشرقين تزخر باكتشافات العرب في ذلك .

وبعد هذا العرض السريع للوجه المشرق في تلك الفترة الزمنية علينا ان ننتبه الى ان العرب حينما ارتفعوا بالحياة العقلية كان العالم الاوربي يخضع للجهل العام ويكافح شعبه من اجل الانعتاق من شبك البربرية واغلالها الاجتماعية والفكرية (٤٧) . ويعمل بجهد مضن للتخلص من نظام الاقطاع وهيمنة النبلاء الذين سخرروا الارض واهلها للذاتهم وحماقاتهم واعتبروا الانسان جزءا من الارض يباع ويشترى بالتبعية الاقطاعية ، هذا بالرغم من كثرة الاقطاعيات وصغر مساحاتها في بعض المناطق الاوربية حتى قيل عن الاقطاعيات البولونية « اذا جلس كلب النبيل في اقطاعيته امتد ذنبه الى اقطاعية



جاره» . وكان البابوات يباركون تلك الفوضى وذلك  
 البؤس مما جعل بعض اساقفة سكسونيا يهيبون  
 بالشعب الالماني باسم الايمان «ان ثمة عملا ينتظرهم  
 ( لانتقاد ) الشعب السلافي من الوثنية والهرطقة» .  
 وقد تبنى هذه الدعوة ( الاسقف اتو ) اسقف مدينة  
 ( بامبرج ) فطلق الالمان في زحفهم مقتربين اكبر  
 الفطائع باسم السيد المسيح ووقع كثير من المذابح  
 والاغتيالات والمقاتل والمصادرات والاستعباد  
 والاسترقاق. ولكن ثورات السلافين بقيت تتكرر  
 ضد الزاحفين باسم الايمان ما بين سنة ( ٩٨٣ -  
 ١٠٦٦ م ) . وكانت شريعة الغاب هي السائدة في  
 التعامل اليومي . وكانت الكنيسة اكثر ما تخشى  
 جدل الفلاسفة ومناقشات المعلمين ، وكانت ترتعد  
 خيفة من صوت العلم القادم من الشرق ، ومهما كان  
 وضع المجتمع الاوربي فان سلطة الاديرة هي الاقوى  
 وكان النبلاء يتفقون مع هذه السلطة حفظا لمراكزهم  
 بالرغم من كونهم ابعد الناس ايمانا بها . ومثلما  
 اوصدت الاديرة ابوابها ضد العلوم الحديثة فتحتها  
 للشعبذة وسكوك الغفران . وبعد عهد طويل تمكن

( الاستاذ البريتوني ) لأول مرة ان يجعل من باريس  
 سنة ١١٤٢م مركزا للتفكير الحر والبحث العلمي  
 متحديا سلطة الاديرة ونزوات النبلاء . ولكن محاكم  
 التفتيش القادرة استمرت تلاحق الاحرار والمفكرين  
 وتحرقهم لانهم هراطقة او ملحدون او سحرة حتى  
 القرن الخامس عشر الميلادي . وتضحية جان دارك  
 بطلة فرنسا القومية ليست بعيدة عن سمع التاريخ  
 وبصره . ونفي دانتي ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ ) ومطاردته  
 ليست غائبة عن الازهان . وقد قال مؤرخو ذلك  
 الشاعر ( ان المنفى هو الذي انتقذه من مخالب  
 فلورنسه ) (٤٨) وحماقاتها في مطاردة المفكرين .

وهذه التناقض بين الشرق الاسلامي والغرب  
 الصليبي تناولها الحكاية في (الليالي)بتصوير اهمية  
 العلم وتقدير اهله عند العرب كما تناولته الحكاية  
 الغربية بتجميع قطاع الطرق واللصوص بقيادة  
 ( روبن هود ) لنصرة الملك الطيب ريكاردوس قلب  
 الاسد ملك انكلترا بعد عودته من غزواته الصليبية  
 فوجد ان اخاه قد استغل غيابه في الحرب «المقدسة»  
 واستولى على العرش . والحكاية تقارن بشكل

مواسط بين الملكين اذ ان الملك العربي يقبل العلم ويوافق على ان يطليه شيخ زاهد بينما تشير الحكاية نفسها في ( الليالي ) الى ( ملك الفرنج ) الذي كان يتقرب الى الاديرة باعدام الاسرى المسلمين في حكاية ( مريم الزنارية ) . ويؤكد اسامة بن منقذ ان الطب عند ( الفرنجة ) يضع الشمع في انف المريض لانتقاه من الم المرض . ومثل هذا التزام يعبر بدقة عن البون الشاسع بين الانتصار العلمي من خلال السلوك والانتصار الفوضوي من خلال الرغبة والخرافة فتكون الصراعات هدمًا حضاريًا قبل ان تكون بناء . وهذا ما حدث فعلا خلال الحملات الصليبية الاولى . وبعد فترة ، انتبه الغرب الى انه يوشك على محو حضارة فرأى ان يسلبها . فذلك خير له وابقى وقد حدث ذلك فعلا .

## الخسائر والارباح

أذهلت الحضارة العربية والاسلامية مفكري الغرب الصليبيين اذ انهم جاءوا ليحرروا قبر المسيح من ( الهمج المسلمين ! ) فاکشفوا انهم بحاجة الى تحرير عقولهم من الخرافة والجهل ، فراح ( مبدا مشاركة رجال الدين للملائكة في الرضا الابدی ) ينهار « وبدأ يشعر الناس ان ما جاء على السنة البابوات من مفارقات ليست دائما قضايا مسلما بها » فاصبح ارسطو - بفضل المسلمين - معروفا لأول مرة ولم يكن قبل الحروب الصليبية مقبولا ان « يقرع الفيلسوف ابواب العقائد الدينية او يتناولها بالنقد العقلي المطلق » من غير تفيد بالایمان . واطلع الغرب على علوم العرب ونقلها وبدأت الحركة الجامعية تأخذ في النمو من حيث الاهمية في الدوائر الرسمية . فضلا عن الاتساع في التعليم فصار

( البابا ) او الامبراطور هو الذي يمنح اجازة ( بحق الرواية ) البكلوريا (٥٠) . فعندما صارت مؤلفات اليونان والعرب في متناول الدراسات الجامعية في باريس ( سنة ١١٤٢ م ) وانتقلت الى جامعة اوكسفورد في انكلترا ( سنة ١١٦٨ م ) ومنها الى كمبرج ( سنة ١٣٠٩ م ) (٥١) . وكانت الارقام العربية من اهم ما اخذه الغرب فطفت على الارقام اللاتينية لسهولة استعمالها ودقة الحسابات فيها . وقد تطور شعور الصليبيين بالخيبة في محافظتهم على (الارض) وبيت المقدس الى طموح علمي عندما عادوا الى بلادهم . ولكن هذا لم يمنع الحملة الصليبية الرابعة بعد خيبتها من تحويل طموحها السياسي الى هدم الامبراطورية البيزنطية ونهب القسطنطينية سنة ( ١٢٠٤ م ) وتمزيق اكبر دولة واغناها في المعصور الوسطى .

ومثلما اثرت الحروب الصليبية اقتصاديا على اوربا بدت الحياة الفكرية اكبر تأثرا واكثر عمقا واستعدادا لاستقبال عهد النهضة الكبرى التي فصلت بين العصور الحديثة والعصور الوسطى .

فما ان حل القرن الرابع عشر الميلادي حتى هبت رياح الإصلاح الديني فظهر ( جون ويكليف ) سنة ( ١٣٢٨ - ١٣٤٨ م ) الذي نادى « بان السيد المسيح هو الوحيد الذي له سلطان على الانسان وان هناك كثيرا من تعاليم الكنيسة فاسد فارتعدت الكنيسة في روما من نشاطه وبلغ الحقد ان نبشت قبره بعد موته واحرقت عظامه » (٥٢) . ولكن ( جون همس ) ( ١٣٦٩ - ١٤١٥ م ) لقي مصرعه على يد الكنيسة بمأسة رهيبة بعد ان اعلن تمسكه بمبادئ ( ويكليف ) وكان لوثر ( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ م ) في خاتمة مطاف دعاة الإصلاح الديني فمزق سلطة البابا واعلن سلطة العقل وحرية الرأي . فانصرف له الفقراء والمعدمون وجروا وراءهم النبلاء فغاز في النهاية بمساندة الشعب . واختراع الطباعة (٥٣) وانتصار لوثر جعل مفكري الكنيسة ان يعملوا على اخضاع الكنيسة لنوع من الاشراف المنظم والرقابة الدائمة بعد ان كانت سلطة البابا هي العليا . ولكن ما شهدته هذا القرن من تقليص سلطة البابا كان يزائمه سقوط الدولة العربية في الاندلس سنة ١٤٩٢م اي في السنة

نفسها التي اكتشفت فيها امريكا . ويقول ( فشر )  
 ( ان التوافق الزمني بين عصر الجهود المسيحية ضد  
 المسلمين في اسبانيا وعصر الحروب الصليبية في  
 الشرق لم يكن محض الصدفة او وليدها ) ( ٥٤ ) اذ ان  
 احتلال طليطلة سنة ١٠٨٥ م لا يبعد كثيرا عن الحملة  
 الصليبية الاولى سنة ١٠٩٧ م وفشل الحروب  
 الصليبية في خاتمها سنة ١٢٩١ م لا يبعد كثيرا عن  
 الاستيلاء على مدينة ( مرسية ) عبر جبل طارق  
 سنة ١٢٦٦ م . اما التطور الفكري فقد سار بخطين  
 متعاكسين تماما ، اذ انحسرت مقوماته في الشرق  
 الاسلامي وتلاحقت الاحداث من ضربات التتار الموجهة  
 فلم تترك فرصة لالتقاط الانفاس وبدأت النهضة  
 الاوربية تتسع لتشمل كل الميادين ، فبينما كان  
 ( فردريك الكبير ) ملك المانيا يفاخر ملوك اوربا بكونه  
 يعرف اللغة العربية قراءة وكتابة كان ادباء العرب  
 ينظمون الاحاجي والحزازير في زوايا التكايا وتحت  
 اساطين المساجد المهملة . مما جعل السمات  
 الانسانية عند العربي تنكفئ دهورا طويلة وتدور  
 مقوماتها في حلقات مفرغة تحت سلطان كمية ضخمة

من السلاطين الجهلة والماليك والمرتزقة . وقراءة  
 عرضية لمقدمة ( عجائب الآثار في التراجم والاخبار )  
 لمؤلفه الشيخ عبدالرحمن الجبرتي ، توضح محنة  
 الفكر اذ ورد في ديباجتها ( اعلم ان سبب هلاك  
 الملوك اطراح ذوي الفضائل واسطناع ذوي الرذائل  
 والاستخفاف بعظمة الناصح والاعتزاز بتزكية المادح )  
 وهذه الحقائق التي طفت على المجتمعات العربية  
 في العصور المظلمة ادت الى تحركات مرضية بحيث  
 اصبح الفرد يتخيل ان بإمكانه انجاز عمل صعب ولم  
 يكن ذلك العمل غير محاولة لاشباع النزعات المصلحية  
 . . مما جعل الشخصية العربية تنمو بعد الحروب  
 الصليبية على فقائيع وهمية ، بينما كانت الشخصية  
 الغربية تنمو على دعائم علمية مستمدة من الفردوس  
 العربي المفقود تروانا وعلماء وسلوكا وكتابات امتلأت به  
 مكتبات الاديرة والجامعات الغربية . ورفض العربي  
 في العصور المظلمة الاعتراف بالنكوص والتقهر  
 معتبرا تراثه الضائع يكفي لميزته التاريخية ويميز  
 هذا الفرور القاتل ( الدراويش ) واصحاب ( الطرق )  
 والدولة العثمانية القائمة على نظام المرتزقة

( الانكشارية ) ذلك النظام الغريب من نوعه في التاريخ الذي لم يكن نظام سلطة الممالك افضل منه في استمرارية الدولة . واصبح الطوق في المشرق العربي كما كان في الغرب قبل الحروب الصليبية قويا نسي محاصرة الحرية الشخصية ومحاولة التخلص من الموقات الحضارية والانطلاق من الحصار . وكانما ( موراي ) العالم النفساني قد اشتق قائمته نسي الحاجات الانسانية للسلوك من الاوضاع العامة التي كانت سائدة (ده) في الشرق لا في الغرب في العصور الحديثة . فقرر ان العلاقات المتبادلة « لا تعمل كل منها في عزلة عن الاخرى وان لطبيعة التفاعل الاجتماعي او التأثير المتبادل اهمية فائقة » ، وهذا ما حدث فعلا بعد الانحسار الحضاري السريع فاصبح التفاعل يتم بين الرغبة وبين الامكانيات لا بين المعرفة وتطوير الامكانيات . غير ان ( الحكواتي ) في الليالي كان ابعد نظرا من الموروث فحتم حكاياته بتجميع ابطال الاحداث بغض النظر عن التفاوت الزمني في تلك الاحداث وعلاقة عمر البطل بتاريخ الحادث ، وعاقب من عاقب وجازى من جازى وتبنا

بالخير ، ولكن نبوءته جاءت متاخرة ، امتدت اكثر من سبعة قرون فيما لو اعتبرنا التزامن بين الموروث والحكاية لم يتجاوز القرن الثالث عشر الميلادي . وبعد هذا الايجاز في التحليل وربط التاريخ بالحكاية هل بمقدور مفكرينا المعاصرين ان يلتمسوا التزامن مفصلا في كل ظاهرة على حدة ؟ ويعملوا على دفع النهضة العربية الحديثة دفعا بموجب تخطيط علمي قائم على الروابط العلمية الصحيحة وتطويرها الى الامام ؟ اظنهم قادرين ولا اضن عليهم بالتغاول .  
بغداد : في ٢٦-١-١٩٧٨

## هوامش ومصادر

- (١) التزامن - ترجمة كلمة Synchronicity  
ولعني تطابق الأحداث التي تقع معا في الوقت نفسه وقد ترجمها بهذا المعنى مترجمو كتاب نظريات الشخصية ، الدكتور فرج احمد فرج وقنري محمد حنفي ولطفي محمد فطيم .
- (٢) ل . هوك وج . لندزي : نظريات الشخصية ، ص ١١٢ .
- (٣) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
- (٤) يرى الدكتور جواد علي ان التاريخ ليس علما ، وقد طرح هذا الرأي في ندوة مشوالية ( تلفزيونية ) قابله فيها الاستاذ حسن العلوي .
- (٥) حنا الفاخوري و خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ٥٠٤/٢ .
- (٦) اعتمدت في هذا الجرد على الطبعة الرابعة الكانوليكية . واما في طبعة بولاق فتزيد الليالي على هذا الرقم .
- (٧) نظريات الشخصية ص ٦٦٢ انظر النظرية الاجتماعية الحيوية لمورلي .
- (٨) تاريخ الفلسفة العربية ٣٠٣/١ .
- (٩) ول دبورانت : مباهج الفلسفة ١٠٧/١ .
- (١٠) فليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٢٢/٢ .
- (١١) المصدر السابق ٢٢٩/٢ .
- (١٢) د . حسن حنفي مقدمة رسالة في اللاهوت والياسة

- (١٣) اسامة بن منقذ من امراء آل منقذ اصحاب قلعة شيزر وكان من اصدقاء صلاح الدين الايوبي وضيافته وشاهد عيان لكثير من معاركه وهو مؤلف كتاب ( الاعتبار ) .
- (١٤) الاعتبار ، ص ١٢٥ .
- (١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .
- (١٦) دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٨٨ .
- (١٧) سينوزا ، ص ٢١٤ .
- (١٨) حرر صلاح الدين الايوبي مدينة عكا سنة ١١٨٩ م . انظر الكامل في التاريخ ٢١٠/٩ وما بعدها طبعة دار الكتاب العربي .
- (١٩) ابن الانبرج ٩ احداث سنة ٥٧٠ للهجرة .
- (٢٠) الاعتبار ، ص ١٤٠ .
- (٢١) فليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٥٦/٢ .
- (٢٢) المصدر السابق ٢٥٦/٢ .
- (٢٣) انظر الهامش (٢٢) ص ٢١٥ من كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة .
- (٢٤) الدكتور ابراهيم مدكور : في الفلسفة الاسلامية ص ٦٦ .
- (٢٥) حنا الفاخوري و خليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ٢٩٩/١ .
- (٢٦) فليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٩١/٢ .
- (٢٧) الدكتور احمد سويلم العمري : اصول العلاقات السياسية الدولية ، ص ٤٨ .
- (٢٨) برناردشو : جان دارك ، ص ٢١٨ ترجمة احمد زكي .

- (٢٠) سعيد الدبوجي : الفتوة في الاسلام ، ص ٥٤ .  
 (٢١) ويتولد النيكسون : تراث الاسلام ١٢٧/١ .  
 (٢٢) انظر ترجمته في ياقوت ( معجم الادباء ) ٢١٦/٢ .  
 (٢٣) ميشال فريد غريب : العلاج او وضوء الدم ص ٥٤ - ٦٣ وقد اقتبسنا بعض فقراته بتصرف . والظر الفتوحات الاسلامية لاحمد بن زيني الكلي أحداث سنة ٦٠٠ للهجرة وما بعدها .  
 (٢٤) المصدر السابق .  
 (٢٥) ينسب هذا القول الى الامام الشافعي .  
 (٢٦) الدكتور صلاح الدين المنجد : الحركات التقدمية في العراق حتى غزو التتار ، انظر الفصل الاول .  
 (٢٧) ابن الاثير : ٧١/٩ انظر أحداث سنة ٥٥٤ للهجرة .  
 (٢٨) رسائل الجاحظ : ١٧٤/٢ على هامش الكامل للمبرد .  
 (٢٩) منير بعلبكي : صلاح الدين الايوبي ، ص ٧ .  
 (٣٠) سبنوزا ، ص ١١٥ .  
 (٤١) انظر حكاية « تودد الجارية » في الف ليلة وليلة .  
 (٤٢) فلان الفلاني : مجلة الف باء العدد ٤٨٧ ، ص ٢٥ .  
 (٤٣) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ٨٩ - ٩١ .  
 (٤٤) ماكس مايرهون : تراث الاسلام ٢٠٨/٢ طبعة نادي ابن سينا في الموصل .  
 (٤٥) خطط القرطبي ٤٠٨/١ .  
 (٤٦) احمد امين : نهر الاسلام ٢٢١/٢ .  
 (٤٧) تراث الاسلام ٢٣٠/٢ « المصدر السابق » .

- (٤٨) ح . ا . ل فشر : تاريخ اوربا في العصور الوسطى ١٥٢/١ .  
 (٤٩) المصدر السابق ٢٧٠/٢ .  
 (٥٠) نشرت جريدة التايمس اللندنية في ملحقها للتعليم العالي في ٢-١٩٧٥ للباحثين « ر . ي . عبيد و م . ل . يونك بحثا مطولا جاء فيه ان المسلمين هم مكتشفو الجامعة ونظامها الاكاديمي وان شهادة ( البكالوريوس ) اصطلاح متطور عن اجازة ( بحق الرواية ) التي كان يمنحها الشيوخ لتلامذتهم » .  
 (٥١) تاريخ اوربا في العصور الوسطى ٢١٢/١ .  
 (٥٢) انظر مقدمة عجاج نويهض وشفيق الحوت لكتاب « نفاق اليهود » مؤلفه مارتن لوتر .  
 (٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٣ .  
 (٥٤) تاريخ اوربا في العصور الوسطى ٢٨٩/٢ .  
 (٥٥) انظر تعريفات « موراي » في كتاب نظريات الشخصية ص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

## المحتويات

- ٥ - التزام
- ١٣ - الغزو الصليبي
- ٢١ - العلائق بين التاريخ والحكايات
- ٣٠ - لمحات صوفية
- ٢٨ - المسألة الاجتماعية
- ٤٨ - الصورة عند القليلين
- ٥٦ - الوجه المشرق
- ٦٥ - الخسائر والأرباح
- ٧٢ - هوامش ومصادر

رقم الابداع في المكتبة الوطنية - بغداد

١٩٨٠ لسنة ١٩٦٤

دار الحرية للطباعة بغداد - ١٤٠٠هـ - ١٣٨٠م